الفصل الخامس

مقاومة عارية

أشرقت الشمس بكآبة في صباح اليوم التالي، لا جديد سوى المزيد من الفواجع.

جموع العصبة لا يزالون يتغلغلون في المدينة بأسلحتهم وسيارتهم، ويستحوذون دون أن يجدوا رادعاً لهم، بصيص من الأمل لتوقف عبثهم كان مفقوداً، مفاتيح السلطة قد آلت إليهم؛ لكن ما حدث في ذلك الصباح أوقد وهج الغضب الخامد.

مع وقت صلاة الجمعة، اتجه عبد الكريم وابنه طارق لأداء الصلاة بالجامع الموجود بالحي، وبعد أن انتهت الصلاة فوجئ المصلون بمجموعة ملثمة منهم يقتحمون المسجد ببنادقهم وأسلحتهم، انتشروا في المكان وتتفرقوا عند كل زاوية بالمسجد وعند أبوابه، ارتبك الجميع وامتزجت مشاعرهم بين الفزع والغضب، هل ينوون قتلهم دون جريرة واضحة؟

قال طارق لوالده:

-أبي، أليس هذا يحيى؟

نظر حيث ينظر، انتبه إلى أن يحيى هو قائدهم، ثم رآه وهو يزيح العمامة عن وجهه ويعتلي المنبر وهو يقول مهدئاً:

-لا تضطربوا ولا تخافوا، لن نؤذي أحداً، استمعوا إليَّ فقط.

تحدث بصوت جهوري في هدوء وثقة ودون ارتباك من نظرات الناس، تمتم طارق في غضب:

-استمع إليك وأنت تهددني بالقتل؟ هذا لن يكون.

أعرض بوجهه وأخرج هاتفه لينشغل به متجاهلا إياه، بينما قال يحيى:

-بسم الله والحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله

بسم الله ندعوكم لمساندتنا، بسم الله نناشدكم لأجل مدينتنا، لأجل أن نطبق شرع الله ونهجه القويم في أرضنا، لذا نريدكم أن تقفوا معنا، لأجل أمن مجتمعنا الحضرمي، ونعيش حياة كريمة هانئة وندحر كل الفاسدين والطامعين، ولاة أمرنا لا يريدون إلا تطبيق دستور اعتمدوه من الغرب فصارت العدالة حلماً والحقوق منتهكة زائلة، الحكومة لا ترى الحق إلا معها وما عداه فهو باطل.

يا أهل مدينتنا الطيبة، إنا نعدكم بأنكم إن وقفتم معنا سيحل عهد جديد في كل ربوع محافظتنا، ستزدهر، وليكن رضى الله هو كل ما نأمله ونرتجيه في كل خطوة نخطوها، فكونوا معنا نكن معكم، نحن أبناء هذه الأرض ولا نريد لها إلا كل خير، وما حدث قبل ليلة الأمس شر لابد منه لإزالة كل جرذان السلطة والخونة والمندسين، فلا تقلقوا منا ولا تغتروا بمن يغوروا صدوركم ضدنا،

فنحن منكم وأنتم منا.

ومضى يحيى يروي مفاسد السلطة وما يستطيع هو وجماعته تقديمه لأجل المدينة رغبة في كسب الناس، لحظتها اتقد مرجل الغضب في صدر عبد الكريم؛

أبعد كل هذا الرعب والقتل والتدمير والحصار يدَّعون بأنهم مع الله ولأجله ولأجل الناس؟

أبعد قتل كل المدينة في ظرف يوم واحد يطلبون المساندة؟

أبعد إطلاقٍ لوحوش من سجونها هاجت وماجت وقتلت يطلبون سند الضحايا؟

أبعد تلقيه تهديد صريح بقتل فلذة كبده لمجرد نظرات وكلمات جدال لا تستهويهم يجبر مع غيره ليستمع إلى ندائهم؟

ما أوجعه أكثر هو أن يكون أبناء الوطن جزءاً من منظومة القتل والظلم، مغسولي الأدمغة بكلمات الدين وظواهره على الجسد دون أن يكون للقلب نصيب منه.

احتقن وجهه وتصاعدت أنفاسه واصطكت أسنانه لدرجة أنه لفت انتباه طارق وظنه سيرد على حديث يحيى؛ لكن شيئاً لم يحدث بل تمالك نفسه، ماذا ستفيد الكلمات دون استخدام العقل؟ فتمتم:

-أنتم للأسف منا لكنا لسنا منكم.

تطلع طارق حوله رأى معظمهم حالته كحالة والده، وإن كان البعض هادئا منسجم مع الحديث.

مرت عشرون دقيقة على الكلمات المنمقة كعشرين دهراً، خرج المصلون بعدها ليعودوا إلى بيوتهم.

من هذه اللحظة، بدأت العصبة تحاول غرس جذورها وتثبيت قواعدها ليس على الأرض بل في قلوب الناس، إذا كانوا قد استطاعوا استمالة الشباب في وقت السلم، فلن يكون من العسير عليهم خداعهم وغسل أدمغتهم في وقت الحرب وانتشار الفقر والفساد.

فكر عبد الكريم في ذلك والغضب يهيج نفسه وهو يجلس إلى جوار طارق الذي يقود السيارة وهم في طريق عودتهم للبيت، والأخير يراقبه في صمت، حتى قطعه وهو يقول:

-لا يجب أن نسكت، لا يجب.

-وما الذي في وسعك فعله يا أبي؟

انتبه له، فتنفس بعمق ثم قال:

-بالمقاومة.

-مقاومة!! هل ترى إننا نستطيع ذلك دون سلاح؟

-نستطيع، المقاومة ليست بالسلاح وحده يا ولدي، هناك طرق أخرى.

-وما هي؟

-ستعرف في حينه، ولا تنسى أهم سلاح.

-وما هو؟

-الدعاء.

رد طارق في سخرية:

-أعتقد أن هذا الشيء الذي سيستطيع الجميع فعله دون غيره.

-طارق!!

-أعتذر أبي، طالما أن من بيدهم القوة قد فروا من أمام هؤلاء الشرذمة، فلا أعتقد بأننا نستطيع فعل شيء سوى المراقبة.

-المراقبة لن تجدي الآن، هؤلاء كما أفسدوا الأرض سيفسدون البشر.

-سأراقب ما سيحدث مع إنه لم يعد يهمني ما قد يحدث، فأنا في إجازة ولا أريد أن يقلقها شيء.

تنهد عبد الكريم بعمق وهو يقول:

-هداك الله يا ولدي.

يوماً بعد آخر كانت الأمور تزداد تقيداً، لم تترك الحرب بقعة من المحافظة ليشعر أحد بالطمأنينة.

تهاوى ما تبقى من مراكز الشرطة والمواقع العسكرية والمطار والميناء في أيدي الغزاة خلال أيام، واستحوذوا على الوقود الواصل لها، فيصل للمحطات ولمراكز توليد الكهرباء دون الحاجة، وظل الناس في توجس من كل يوم يقبل عليهم، أغلقت المدارس، وتعثرت أعمالهم، وأصبحت سحب الكدر تلبد السماء كل يوم لتخفي شعاع الأمل كل صباح، وتغرق المدينة كل يوم وليلة في سبات الظلم والظلام، لقد توقف نبض الحياة المعتادة.

إحباط ويأس وغيظ اجتمعوا في النفوس، وتيقنوا أن ما قيل لهم ولا يزال يُقال عقب كل صلاة ما هي إلا دعوة مبطنة للانضمام لمشروع فساد ممتد منذ سنوات طويلة وليس من سبيل للخروج من ضيق الوضع وسوئه للحصول على نعيم إلا بالانضمام إليهم.

لم يكن عبد الكريم وعائلته ببعيدين عن حال بقية السكان، فبعد إغلاق المؤسسة، يقضي معظم وقته في البيت يتابع أمور المستأجرين هاتفيا مع مساعده سهيل، ويزورهم ويستطلع أمورهم إن لزم الأمر فقط، ويتابع ما يجري على شاشة التلفاز في ألم، وكالعادة بقية أفراد العائلة في هروب من الجلوس معه في تلك اللحظة؛ بل الهروب من واقع الحياة المرير؛ فتنشغل عائشة إما بتعليم ابنتها بسبب إغلاق روضتها، أو بزياراتها لصديقاتها أو التسكع في الأسواق برفقتهن، أما طارق فهوس المرح واللعب والحديث لرفاقه لا يفارقه، لم يعد يستطيع الجلوس مع أبيه لحظة مشاهدته التلفاز بل يعزل نفسه في غرفته ولا يخرج منها إلا وقت العصر ليلتقي بهم بالمقهى أو على شاطئ البحر، كل الأندية التي كانوا يزورونها ظلت مغلقة، وهذا ما رسم الضيق على محياه أحيانا كثيرة، وعند الغرق في عتمة الظلام مع تقطعات الكهرباء الكثيرة يبلغ الاختناق والضجر منه مبلغهما فيخرج على الفور من منزله رغم عتاب والديه، إلا أنه كل مرة يتملص منهما، محاولاً باستماتة أن يجنب نفسه كل ما قد يعكر صفوه ليتعايش مع الوضع، أما رُبا فهي الوحيدة التي لا تعي شيئا مما يحدث قد تشتكي أو تتذمر حين لا تستطيع مشاهدة برامجها المفضلة فتشغلها والدتها بشيء آخر لتنسى وتعود كما كانت؛ فرحة بشوشة وكأنها لم تواجه شيئا منذ أيام.

وذات صباح، حين كان عائداً بسيارته من جولة عند بعض المستأجرين وإلى جانبه سهيل وهما يمران قريبا من خور المكلا لمحا عدداً من العصبة على مسافة منهما مجتمعين قرب بنك وعيونهم تتفحص المبنى، قال سهيل في غضب:

-إنهم ينوون إعادة الكرة، لا شك في أنهم يريدون السرقة.

بادله عبد الكريم نفس الشعور وهو يقول بنفس نبرته:

-وفي وضح النهار؟ ما أوقحهم، لكن اللوم يقع علينا.

-لِم يقع اللوم علينا وهم مدججين بالسلاح ونحن لا نملكه؟ سيبيدوننا.

-نحن نباد بالتدريج يا سهيل، أشعر بأني سأحذو حذو طارق.

وتحرك بسيارته نحوهم، فقال في فزع:

-ماذا ستفعل يا سيدي؟

-سأوقفهم.

-تمهل، ليس هكذا.

-كفى صمتاً أرهقنا.

أمسك سهيل بيده في قوة فمالت السيارة عن الطريق إلا أنه استطاع أن يعيدها لمسارها ثم أوقفها وهو يقول في حزم:

-لن أتوقف، قلت لك كفى صمتا.

-تريث يا سيدي، ليس...

لم يكمل كلمته حين رأه يخرج من سيارته، أسرع يلحق به وهو يصيح به أن يتوقف ليثنيه عما عزم عليه فلم يفلح، اقترب عبد الكريم منهم، كانوا عشرة شبان ملثمين، فصاح بهم في غضب:

-مالذي تحاولون فعله هنا؟

التفت أحدهم إليه وهو يقول في حدة:

-وما دخلك أنت أيها العجوز؟ ابتعد من هنا.

-لن أفعل، المال هنا هو ملك الناس وليس لكم.

-بل هو ملك لمن بيده السلطة.

رد في لهجة حملت شيئاً من السخرية:

-وهل من بيده السلطة سيحتاج لكسر الباب واقتحام المكان؟

رد الشاب في غضب:

-لا شأن لك، ابتعد، نحن نقرر ما هو الأنسب فعله لأجل المدينة.

-السرقة ليست لأجل أحد بل لأجل أنفسكم، إلى هنا وكفى، هذه مدينتنا وأنتم لا هم لكم إلا تكديس الأموال في جيوبكم وليس لأجلها، هذا حقنا، كفاكم نهباً.

-هذه مدينتنا أيضاً، وسنفعل أي شيء لأجلها.

-بل لن تفعلوا أي شيء إلا لأنفسكم، لن تخدعني بكلماتك هذه.

شهر ثلاثة بنادقهم في وجه عبد الكريم لإخافته؛ لكنه لم يخف ولم يهتز؛ بل ظلت نظراته النارية الحازمة مصوبة نحوهم، ارتجف سهيل من المشهد وهو يرى الشاب وقد عقد حاجبيه وقال في سخرية:

-وكأنها المرة الأولى الذي نفعل هذا، أين كنت؟

-كنت في غيبوبة الصدمة، كنت مثل البقية أنتظر أن يقوم جنودنا باستئصال شركم، كنتُ أنتظر ممن وثقنا بهم أن يكونوا في صفنا لكن يبدو أن الانتظار كان عبثاً.

ضحك الشاب وقال:

-رائع، إذن من ولي الأمر هنا؟

-قل من فرض نفسه بالقوة هنا، الناس لا ترتجي منكم خيراً، فانقلع أنت ومن معك.

اقترب الشاب أكثر من عبد الكريم، وقال في لهجة تحدي:

-يبدو بأنك لا تفهم موقفك، نحن سنفعل ما نريد.

أسرع سهيل يبعد خوفه ليقترب وهو يصيح في حدة:

-بل توقفوا عن عبثكم.

-ارحلوا من هنا.

-لن نسمح لكم بالسرقة.

-نحن سنمنعكم وإن كنا دون سلاح.

انتبه أفراد المجموعة لعدد من الناس يقتربون منهم وهم يقولون تلك الكلمات فالتفتوا إليهم، نظرات غضبٍ ساطعة في عيونهم وهم لا يزالون يهتفون منددين بتصرفهم، ومنهم من حمل عصا كأنما كان مستعدا لقتالهم.

رويداً رويداً زاد التجمهر حولهم وإلى جانب عبد الكريم الذي ابتسم.

نيران الألم أوقدت نور ثورة، قرروا رفض الظلم وسطوة احتلال وإن لم يكن في أيديهم أي سلاح، وهجٌ سطع في العيون لم يستطع شباب العصبة إخماده وهم من يحملون السلاح.

تلبك الشاب ورفاقه حين هاجمتهم نظرات الناس العزل، بينما قال أحدهم في غضب وهو يضع سبابته على زناد بندقيته:

-هؤلاء لا ينفع معهم إلا...

عندها أشار الشاب لهم بأن يخفضوا أسلحتهم وهو يقول:

-لنتوقف.

-ولكن...

رد أحدهم بذلك فقاطعه وهو يتمتم له:

-لسنا هنا بصدد قتل أحد، وإن فعلنا سنقع في مشكلة، إنهم أهل مدينتنا ونعرفهم وسيعرفوننا، لننسحب الآن.

فأيد رفاقه رأيه إلا أنه حدج عبد الكريم بنظرات غضب، وقال بعد زفير:

-لن أنساك يا هذا.

وغادر المكان مع رفاقه، في تلك اللحظة نظر الناس لبعضهم وتبادلت نظراتهم تساؤلات:

أيعقل أن يظلوا صامتين على الظلم؟

أيعقل أن تظل المدينة مبعثرة دون والٍ إلا هؤلاء؟

غادر الجميع المكان لكن شيئاً غريبا في النفوس ومن بين براثن اليأس اتقد، إنها صرخات المقاومة التي لم تتأخر كثيراً بعد ذلك.

ففي اليوم التالي مباشرة، انطلقت وتناقل سكان المدينة حيثياتها.

انتفض الشيوخ وأئمة المساجد للثبات في المحنة وبث الأمل في السكان، وحثهم على حماية كل ممتلكات المدينة في ظل انعدام الأمن واختفاء المسؤولين عنه، فبادر الشباب لحماية أحيائهم وممتلكاتهم، كلٌ في حيه تطوعاً، وتم الإعداد لحراسات ليلية بكل المدينة.

أنشأت (هيئة) من وجهاء البلد وشخصيات لها دورها في المجتمع لأجل تيسير أمور المدينة والتفاوض مع العصبة لتجنب الجميع ويلات القتال ومآسي القتل وإيقاف أعمال النهب.

المدينة الآن مسؤولية تقع على عاتق الجميع.

رغم أن الوضع لن يتحسن بسهولة وسط فوضى الحرب العارمة في أصقاع الوطن، إلا أنه لابد من مقاومة لأجل الأرض، وإن كانت مقاومة عارية مجردة من السلاح.

ضجت كل مواقع التواصل وأفواه الناس بها، وطارق ورفاقه يستمعون في صمت لأحاديثهم في مقهاهم المعتاد، فنظروا لبعضهم البعض في صمت وغادروا ليركبوا سيارة طارق الذي قال في سخرية:

-حراسات! الآن؟ هل هم مغفلون؟

رد ناصر:

-هذا الإجراء لمنع المزيد من التمادي من قبل أولئك الأوغاد، وأيضاً من أي لصوص، لن يحمينا أحد.

-لا فائدة منه، لقد سبق السيف العذل، لقد استولوا على كل شيء وانتشروا بكل زاوية بالمدينة.

قال محمود:

-حسب ما سمعت أيضاً، يُقال بأن لهم علاقة بالمتمردين في عدن يمدونهم بالوقود والسلاح إن لزم الأمر، ولهم جواسيس هنا يحاولون معرفة ثغرات المدينة ليتسللوا بمساعدتهم، الحراسة ستكون لأجل هذا أيضا.

قال وليد في قلق:

-وماذا في وسعنا أن نفعل؟ نحتاج لسلاح أثناء الحراسة، كما أني لم أمسك به ولا مرة في حياتي، كيف سأقاتل به؟ هل أقاتل بعصا؟

ضحك رفاقه لقوله، بينما عقد حاجبيه وقال في حدة:

-أنا لا أمزح، والدي أجبرني على المشاركة.

هز طارق رأسه وقال ضاحكاً:

-أخبر والدك أن الحراسة للمسلحين، ماذا لو هاجمك أحدهم ستقف كالأبله، لا أستطيع تخيلك جنديا يا وليد بكرشك الكبير هذا.

قال صبري:

-أظن أن أمر المشاركة سيكون إجباراً يا شباب.

-ماسيبي.(ماسيبي كلمة عامية باللهجة الحضرمية اليمنية وتعني لا شأن لي)

-والدك يساند (هيئة المدينة) يا طارق ويساعد في كل ما من شأنه تحسين وضعها، أعتقد بأنه من غير اللائق ألا تفعل ذلك.

فرد عليه في ضيق:

-والدي يحشر أنفه في كل شيء، لم أعد أراه في البيت إلا بعد صلاة العشاء، تارة مع النازحين والآن مع الهيئة، آه منه، يجب أن يدخر المال لأجل توفير الوقود للبيت مع تقطعات الكهرباء هذه لكنه لم يفعل، وأيضاً لأجل نفقات البيت مع قلة العمل، لست موظفا لأساعده في شيء.

قال ناصر:

-كان الله في عونه، إنه رجل طيب.

-طيب أكثر من اللازم، سيستغله الجميع.

قال وليد في استياء:

-أفتوني يا جماعة، ماذا أفعل مع أبي؟

صمت الجميع للحظات، ثم قال محمود:

-إذا لم نجد مهرباً من آبائنا فليعمل كل واحد منا مع فرقة ثم نهرب منهم ونلتقي في مكان نتفق عليه، ثم نذهب عند شاطئ البحر لنقضي الليل هناك حتى الفجر، أعتقد بأنها فرصة لن نجد مثلها، وإن سألنا أحد أين كنتم سنخبره بأننا كنا نطوف حول الحي نحرس ونراقب، وهكذا نتخلص من ثرثرة الجميع.

أيد رفاقه فكرته ما عدا طارق الذي قال:

-أنا لن أقوم بأية حراسة، ولن أغادر البيت وقت نومي، وسأخبر أبي بذلك، فأنا لن أحمي أحداً رضي بالذل منذ البداية.

قال محمود: سنحولها إلى متعة.

-لن أنجو من توبيخ أبي لذا سأكون صريحاً معه، فمصير هذه المدينة أو حتى البلد برمته ليس من شأني.

-كما تريد، كنت أتمنى مشاركتك.

-في أي وقت أنا معكم يا رفاق، وبما أننا ذكرنا البحر لنذهب إليه الآن.

*****